

حتى أصبحت الشريك الأوروبي البارز في نشاط أوروبا التجاري. ووفد إليها التجار من فرنسيين وأسبان وإيطاليين، وكانت البندقية تجنى الكثير من الأرباح عبر نقل هذه البضائع إلى ألمانيا وفرنسا وغيرها من البلدان الغرب. البندقية كانت مستقلة بشؤونها ويرجع ذلك إلى تمركز بعض الجاليات الرومانية، وبقيت الجاليات الرومانية في تلك الجهات إلى أن امتدت إليهم سلطة القوط. ونتيجة لبقائهم اعترفوا بسيادة الدولة القوط الشرقية. كان الإمبراطور جستنيان يسعى إلى إعادة الدولة الرومانية إلى ما كانت عليه، البندقية لم يحدث لها شيء وأصبحت في مأمن من الفتح اللومباردي. وكان عدد البنادقة في زيادة مستمر في جهات التي لم يصل سيطرة اللومبارديون عليها، وظلوا تابعين تبعية رسمية للدولة البيزنطية. وأصبح التنظيم الكنيسي تحت تأثير الإساقفة اللاجئون وبحكم موضعها الجغرافي أصبحت وحدة سياسية مخالفة لما نشأ في باقي إيطاليا برغم تبعيتها الرسمية لبيزنطة. في أواسط القرن الثامن ظهر خصومه. مما أدى إلى تدخل الفرنجة في شؤون إيطاليا والتي أزالته مملكة اللومبارديين. وقد استفادت البندقية من العلاقة التي نشأت بين البابويك والدولة الفرنجية، وأصبحت الحلقة الوصلة بين البلدين. وأصبحت البندقية الوسيط التجاري بين شرق أوروبا وغربها. امتدت سلطة الفرنجة إلى إيطاليا في عهد شارلمان وقد اعترفت البندقية بالسيادة شارلمان ولكنها لم تدم طويلا لأنها كانت سبب في الحروب وصراعات طويلة وعادت البندقية لتبعيتها القديمة، في أواخر القرن العاشر ميلادي كانت تتربى على العرش من أقوى الأسر في التاريخ البيزنطي هي الأسرة المقدونية. أما من الناحية الإمبراطورية الغربية التي تكونت بعد حلال الدولة الكارولنجية فقد دابت البندقية على مواجهتها باعتبار أنها دولة مستقلة بذاتها وعقدت مع هدأت تجارية كثيرة أما ناحية الداخلية فقد استمرت تنمو كقوة تجارية وأصبحت مدينة زاهرة منذ أوائل القرن التاسع كانت علاقتها بمصر قوية. ومن عظمتها كان إسطولها التجاري يبلغ ستين سفينة. كانت أوروبا مملوءة بحوادث ظهور الدولة النورمانية فقد تأثرت البندقية بظهورها أخذوا يتوسعون على حساب جيرانهم من المسيحيين والمسلمين وهدفهم أن يجعلوا البحر الإديراتي بحرا لجيوشهم مما يتنافى مع سياسة البندقية ومصالح التجارية وأخذ النورمان يمدون السهم نحو الشاطئ الشرقي تمهيدا لاستلام على القسطنطينية وقام بمحاصرة مدينة دوزانو لتحقيق مبتغاه. ويبدأ التطور في البندقية ويظهر أثر النورمان في تاريخ البندقية وشعبها نتيجة تضارب المصالح وكان من الطبيعي اللجوء إلى الكسيس ضد النورمان وأطماعهم. كان بينهم هدف وهو القضاء على العدو المشترك لكليهما، ويجب أن نعرف أن هذه المساعدة ليس لها أي قيمة إنما القيمة الحقيقية تنحصر في البنادقة وافقت على المساعدة وبشرط أن يكون للبنادق حق الأتجار في المدن البيزنطية بما فيها ذلك القسطنطينية وأن يتمتعوا دون غيرهم من التجار بخمسائة قوية بمعنى أن يكون لهم جالية ويكونون محاكم خاصة وليس لبيزنطة عليهم من سلطان تماما مثلما فعلوا عندما ساعدوا الصليبيين الغربيين في الاستيلاء على المدن والموانئ المصرية والشامية أثناء الحركة الصليبية. وقد ساعدت البندقية الإمبراطورية البيزنطية للتخلص من النورمان تحقيقا لمصالح الخاصة. ولقد استفادت من وراء ذلك فائدة حربية ومادية والخاصة أن البنادق أصبحت دولة بحرية قوية تهتم بالتجارة وتعمل على أن تكون لمتاجرها أسواق خاصة. فقد كانت البنادقة يجرون وراء مصالحهم حيثما كانت وكانوا يشتركون مع مع الصليبيين إذا وجدوا مصلحة لهم ويسعون إلى التفاهم مع المسلمين وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة. كان هدف البنادقة هو الريح والكشف المادي ولم يهتموا للباعث الديني إلا إذا كان لهم مصلحة وقد غلبت عليهم الصفة التجارية البحتة وشعارهم هو "لنكن أولا بنادقة، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين". وإذا عدنا إلى الصراع الدائر بين البنادقة والنورمان كانت تخشى من القوى النورمانية الصقلية للاستيلاء على الشاطئ الإديراتي. وموقف البنادقة من الحروب الصليبية كانت تطلب مؤقتا من زعمائها الحذر وكانت تميل إلى بني جنسها بحكم أنها الدولة مسيحية مثلها بمعنى ذلك أنها تفقد التجارة النامية مع بلاد المسلمين في مصر والشرق الأدنى و تجلب على نفسها عدواة بيزنطة وأباطرتها وأن تكوينها السياسي وقوتها البحرية لم تكن قد بلغت الدرجة الكاملة بعد إذا كان نورمان من ناحية الشاطئ الإديراتي والمجربون من ناحية دالماشيا والشواطئ البلقانية وأصحاب الموانئ و لابد أن تصبح صاحبه السيادة في تلك الثغور لتكون المسيطرة على الطريق التي تتوقف عليها تجارتها، والواضح انه هذا الشرط متناقض ولكنه يتفق مع مصلحتها. وبعض الدويلات بإيطاليا شاركت الصليبيين في اعدائهم ضد المسلمين. ولقد وضح لها أن الفرنج سيفتح بلاد وأسواق وخاصة بعد حملة الصبية الأولى لا قد حققت أغراضهم الاستيلاء على بيت المقدس وتكوين إمارة صبية في الشام وذهب بعضهم من البنادق بقصد الاشتراك في هذه الحروب. وكان يقفون بجانب الصليبيين بسبب التجارة. بمعنى أن البندقية دخلت الحروب الصليبية بهدف احتلال المركز التجاري الأول شرق البحر المتوسط والقضاء على منافسيها من التجار. فأخذ الإمبراطور حنا كومنين يضيق على مصالح البنادقة في القسطنطينية وإلغاء امتيازاتها التجارية. كان سبب الحوادث التي جمعت البندقية وبيزنطة هي النورمان وجعلت الدولة البيزنطية

تعتمد على البنادقة في احتياجات العسكرية وبرزت البندقية كدولة بحرية كبرى ولقد انتهى الخطر النورمان مؤقتا بصلح عقد في سنة 1154 م. وبسبب حركة النورمان فقد وقفت البندقية وبيزنطة في جانب واحد ضد النورمان واطماعهم. ومع انتهاء الخطر الخارجي جعل البنادقة تواجه موقف الدولة البيزنطية منها وكان هذا الأمر متوقع كانت البنادقة هي الدولة التجارية الكبرى وتجارها منافسة لمصالح الدولة البيزنطية وغيرها في شرق البحر المتوسط. وكان ذلك مخالفا لمصالح البنادقة وأن هذا الإمبراطور كان يريد مد نفوذه إلى إيطاليا في الشمال والجنوب كخطوة أساسية لتصبح إمبراطورية واحدة. فانضمت البندقية إلى البابوية في نضالها ضد الإمبراطورية، كما وعد بتعويض اللاتين جميعا تعويضا ماليا كافيا. ثم اتت الحملة الصليبية الثالثة بهدف إنقاذ الكيان الصليبي في الأراضي المقدسة بعد ضربات التي واجهها صلاح الدين الأيوبي إليها والذي انتصر في حطين سنة 1187 م وقام يطردهم من البيت المقدس. وقد حصلت البنادق في المقابل على امتيازات تجارية في بلاد الصليبية.